العرب
الأحد 2019/12/22
السنة 42 العدد 11566

# الثابت والمتحول بين أدونيس وطه حسين

## خطاب مشائخي خلافي يلحق الشعر العربي ثابتاً ومتحولاً بالدين ويجعله تابعا

أستخدمُ عبارة الثابت والمتحول لأشير من جهة إلى أن جدلية أدونيس في الإبداع والاتّباع (1977) صارت مؤشراً معرفياً مركزياً في النقد الثقافي العربي، وإلى أنها من ناحية ثانية طرحت أصول الإبداع والاتّباع في الحكم والسياسة وفي اللغة والشعر، وفي العصبية القبلية والفقه السني والشيعي، وفي الحركات الثورية الفكرية من منظور اختزالي أيديولوجي المنزع أي غير مطابق للواقع التاريخي، ولكي أتفحص من ناحية ثالثة بعض خصائص جدلية الاتّباع والإبداع، وأصلها المعرفي المغفل الإحالة.

في كتاب «ألوان» لطه حسين استعراض لمصطلحي الثابت والمتحول عند أوغست كونت صاحب الفكرة التي اعتمدها أدونيس

خلدون الشمعة
ناقد سوري مقيم في لندن

لنبدأ أولاً بالأصل المعرفي مغفل الإحالة. جدلية الثابت والمتحول أو بلغة مؤسس علم الاجتماع أوغست كونت: الثابت (statics) والمتحول (dynamics). للوهلة الأولى قد لا يبدو إغفال أدونيس الإشارة إلى هذا الأصل شديد الأهمية لولا أنه يذكرني بكتاب "ألوان" لطه حسين الصادر عن دار المعارف عام 1952، وهو يشتمل على دراسة عنوانها "الأدب العربي بين أمسه وغده"، يحتل فيها أوغست كونت موقعاً مركزياً من حيث تطبيق طه حسين لجدلية عالم الاجتماع الفرنسي في الثابت والمتحول (أو المتغير) على الأدب العربي.

هذا التطبيق ينطلق من موقع حديث. أما تطبيق أدونيس فهو لا ينطلق من موقع حديث أو حداثي (modernist) كما هو متوقّع، بل يضفي على قراءته المرآوية لما يدعوه بتأصيل الأصول، غلالة لاهوتية المنزع يفصح عنها تحديده لمعنى الثبات والتغيير. وقبل أن نتفحص خصائص هذه الغلالة ودلالاتها دعنا نوضح كيف تعامل أوغست كونت، مبتكر علم الاجتماع (1857 – 1798) (sociology) مع مفهومي كل من الثبات والتغير.

> **مهما فعلنا لن نفهم الماضي إلا من منظور الحاضر. وهذا ينطبق على الشعر العربي أكثر من سواه. ومما يلفت النظر أن جميع الجهود في تحديث التراث أخفقت حتى الآن في تغيير المراتب التي كان يحتلها الأدباء والشعراء والنقاد العرب منذ ألف عام**

يقرأ أدونيس التاريخ الثقافي العربي الإسلامي قراءة مرآوية موازية وعاكسه وهو بذلك يقترب من وضعية عالم الاجتماع الفرنسي التي ترمي إلى تشييد قوانين عامة أو نظريات تعبّر عن العلاقات بين مختلف وجوه الظاهرة. وتبين الملاحظة والتعامل مع هذه الوجوه ما إذا كانت الظاهرات تتصل أو لا تتصل بالنظرة المقترحة، أي أنها تحاول أن تكشف عن مدى صوابيتها. وأحد مفاهيم سوسيولوجيا كونت الأساسية كما هو معروف، مفهوم المراحل الثلاث الذي يساجل بالقول إن الفكر الإنساني قد مرّ تاريخياً من الطور اللاهوتي عبر الميتافيزيقا ليصل إلى الطور الوضعي. وبهذا المعنى ينظر كونت إلى الفكر اللاهوتي باعتباره خطأ فكرياً نقضه ظهور العلم الحديث.

وقد كان كونت هو الذي اقترح التمييز بين الثابت الاجتماعي (social statics) والمتحول (أو المتغير) الاجتماعي (social dynamics) الثابت الاجتماعي يمثل السعي للوصول إلى قوانين التعايش بينما يسعى المتحول أو المتغير الاجتماعي إلى تفعيل قوانين التغير التاريخي. ويبدو أن ما يفعله أدونيس الذي ينتصر لقوانين التغير التاريخي أو يفترض انتصارها، هو أمثلتها (idealization) أي تحويلها (بلغة توماس كون) إلى مثال ناجز أو إلى باراديم (نموذج مرجعي) مسيطر إلى حين.

وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، ولأسباب ليس هذا مجال التعرض لها، وتحتاج إلى وقفة أخرى. ولكن أدونيس الحداثي ظل من ناحية ثانية، متشبثاً بمرآوية طرحه، لمفهومي الثبات والتحول، متمسّكاً بما دعاه كونت بالفكر اللاهوتي المباطن لسردية تاريخية، سردية مهزوزة الصدقية. ويمكن القول بهذا الاعتبار إنه أخفق بمنظوره المرآوي في تحرير النص من النص. فكأنه يساجل لنقض النص الذي يدعوه بالنص الثابت باليسرى ليثبت نصاً آخر يدعوه بالنص المتحوّل، نصاً بديلاً باليد اليمنى.

وهكذا يمكن القول إنه يخفق كحداثي بامتياز عندما يختزل الحضارة العربية الإسلامية التي يرى في الشعر لحمتها وسداتها، عندما يقلصها إلى أحد منتجاتها أي يعدها "حضارة فقه" معبراً عنها بحجاجها، مقابل اعتبار الحضارة الأوروبية المعاصرة "حضارة علم وتقنية". وهذا هو جوهر الاستشراق السلبي، ومصدر التنميطات السلبية (negative stereotyping) التي صارت لشدة تكرارها في سياقات أكاديمية وشعبوية أشبه بتمائم تختصر الأمر الواقع.

والحال أن هذا الاختزال المخلّ للمهاد المعرفي للشعر العربي، والنظر إليه كحصيلة معرفية ثابتة لـ"حضارة فقه" مهيمنة بالوعي واللاوعي، يعني بلغة الأب بولس نويا، المشرف على مشروع أدونيس في الثابت والمتحول، أنه من المتعذر فهم سيطرة مفهومي الاتّباع والإبداع في الشعر العربي دون التحليل المعرفي الدقيق، وبالتالي "نقض" (وأنا أضع هذه الكلمة بين قوسين تعبيراً عن القول بأنها تباطن المشروع الأدونيسي برمته) الرؤيا الدينية التي يزعم أنها الرؤيا المكونة للكل الحضاري العربي.

يقول الأب بولس نويا في تقديمه لكتاب أدونيس الذي يخبرنا أنه كان يتمنى أن يكتبه بنفسه، يقول إنه أدرك "بعد تمرس طويل بالشعر العربي أن تاريخه لا يفهم إلا في ضوء دراسة تشمل الكل الثقافي العربي" وأنه "أدرك أن هذا الكل بدوره لا يفهم إلا بعد تحليل دقيق للمبنى الديني أو للرؤيا الدينية الشاملة التي كونت الكل الحضاري العربي".

وبعبارة أخرى فإن المحمول المعرفي لهذا المبنى الديني أو الكل الثقافي على حد تعبيره، لا بد لتفكيكه من سبر وتحليل الدين الإسلامي ورؤياه التكوينية الشاملة. وهذه المقاربة ذات النزوع التعميمي لا تحيلنا طائعين أو غير طائعين إلى خطاب مشائخي خلافي فحسب، بل تلحق الشعر، ثابته ومتحوله، بالفقه الديني، وتجعله تابعاً له. وبذلك يصير الشعر العربي بجميع مراحله معلقات وخمريات شعراً إسلامياً ثابته ملحق بالدين ومتحوله رد فعل مناقض أو مصحح له. وهذا ليس صحيحاً بطبيعة الحال، فالشعر العربي ليس شعراً دينياً أو متماهياً مع الدين، وهذا ما تشير إليه بوضوح دراسات أدونيس المتميزة للشعرية العربية وبخاصة (محاضراته في الكوليج دو فرانس، باريس، أيار 1984)، وتنقض بذلك هذا الطرح بكماله واكتماله.

فإذا لم يكن الشعر العربي شعراً دينياً، ولم يكن الفقه الديني مباطناً له بالضرورة، فلماذا العودة التعميمية الجامحة أو النكوص المعرفي إلى مهاد ثقافي لا يمكن القول إنه معبر تحديداً عن "حضارة فقه"؟.. ولماذا اعتبار "الشعوبية" التي يرى أدونيس أنها مفهومٌ أطلق جزافاً على شاعر مهم هو أبو نواس، سمة مؤثرة بل تكوينية صانعة لما يدعى بـ"القانون" (canon) (المعتمد الأدبي) الذي يشمل جملة النصوص الأدبية المعترف بها، والمالكة لمشروعية الكاتب والمتلقي بدلاً من النظر إليها بوصفها رؤية أيديولوجية عابرة، أي غير مطابقة للواقع التاريخي؟

إننا مهما فعلنا لن نفهم الماضي إلا من منظور الحاضر. وهذا ينطبق على الشعر العربي أكثر من سواه. ومما يلفت النظر أن جميع الجهود في تحديث التراث أخفقت حتى الآن في تغيير المراتب التي كان يحتلها الأدباء والشعراء والنقاد العرب منذ ألف عام.

ولأن الشعوبية مفهوم أيديولوجي، مورس من قبل طرفين ولم يمارس من طرف واحد، فإن من الممكن قراءته من منظور النقد الثقافي والنقض المعرفي، كمفهوم غير تقييمي، مفهوم ينطوي على فعل وردّ فعل، يتيح للباحث التمييز بين إيقاع الأدب والفكر وإيقاع الدين، والتذكير بأنهما غير متطابقين بل غير متماهيين. وماذا عن حلول الاقتصاد مكان النسب؟

يبين برنارد لويس في أطروحته حول أصول الإسماعيلية (الطبعة العربية كانون الثاني –1980دار الحداثة)، وهي الأطروحة الأقرب إلى الموضوعية التاريخية والتي سبقت بعقود صدور كتابه "الإسلام والغرب"، الكتاب التحريضي والمغرق في الاستشراق السلبي، يبين أهمية الاقتصاد في قراءة تاريخ الإسلام الاجتماعي، يقول لويس إن "الثورة العباسية أوجدت مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام الاجتماعي والاقتصادي: فقد أنتج انصهار الطبقات الحاكمة غير العربية واندماجها بالدولة العربية السنية، وازدياد التقارب والوحدة بين طبقات الرعية والموالي تقسيماً جديداً للطبقات، يعتمد على الاقتصاد أكثر مما يعتمد على النسب والعنصر كما كان في القرن الأول، تقسيماً مكّنه وعزّزه انتقال الخلافة من دولة زراعية عسكرية إلى إمبراطورية تجارية عالمية".

ويضيف أن هذا التغيير بدأ خلال القرن الثاني وقطع شوطاً بعيداً في القرن الثالث "فكان طبيعياً أن ينجم عن هذا التبدل العظيم في الأحوال الاجتماعية ونظام الطبقات استئناف تنظيم الحركات وتوسيعها، تلك الحركات التي تعبّر عن تمرد الطبقات والشعوب الرازحة تحت الظلم. وقد ولدت الظروف العصيبة في القرنين الثالث والرابع سلسلة من الثورات والفتن. ويمكن تسمية القرن الثاني بدور حضانة الثورات".

ولكن ما لا يقوله برنارد لويس ولا يشير إليه هو أن هذه الثورات أكدت بدورها على أن دور النسب في التاريخ العربي الإسلامي أعيد اختراعه مجدداً من قبل قادة هذه الثورات والفتن. وهذا يبدو واضحاً من تلفيقهم المعلن لأنفسهم شجرة وراثية تمنحهم مشروعية القيادة أي إعادة اختراع الدولاب الفقهي مرة أخرى. وتكمن المفارقة هنا في أن النسب نفسه كان مفهوماً شعبوياً مطاطاً باستمرار، رغم أنه شغل ويشغل نقطة المحرق في ادعاء القادة امتلاكهم لهذه المشروعية. لكنّ الأمر مع مفهوم الثابت والمتحول الأدونيسي يحوم من جهة أخرى في فضاء الأيديولوجيا المرجع الوحيد لجدلية الاتّباع والإبداع. ولأن الأيديولوجيا رؤية لا تطابق الواقع التاريخي فحسب، بل تمثل نموذجاً لوعي زائف، وبالتالي لا نقدي، فإن من الممكن السعي لتفكيك هذه الرؤية والنظر إليها من خلال المؤشرات التالية:

> **أدونيس يقرأ التاريخ الثقافي العربي الإسلامي قراءة مرآوية موازية وعاكسه وهو بذلك يقترب من وضعية عالم الاجتماع الفرنسي التي ترمي إلى تشييد قوانين عامة أو نظريات تعبّر عن العلاقات بين مختلف وجوه الظاهرة**

1- يرى بولس نويا أن ثمة نتيجة واحدة لرسالة أدونيس، نتيجة مفادها أن "العلاقة بين الثابت والمتحول لم تكن جدلية بل تناقضية أدت إلى العنف الذي به تغلّب الثابت على المتحول وقضى على كل محاولة قامت بها النزعة الإبداعية. وكانت نتيجة تغلب الثابت إعلان الوحدة بين اللغة والدين، بين الشعر والأخلاق، بين التراث الأدبي والتراث الديني بحيث عمّم مفهوم التراث الديني على التراث الأدبي، وانتهى العربي إلى الشعور أن لغته ودينه وكيانه القومي وحدة لا تتجزأ. وبما أن العامل الديني في هذه الوحدة كان الأقوى فهو الذي كيّف الثقافة العربية".

لا بد هنا من أن نبدد التباساً: فالدعوى القائلة إن العلاقة بين الثابت والمتحول لم تكن جدلية بل تناقضية أدت إلى العنف؛ وربط هذه الدعوى بتغلّب الثابت على المتحول والقضاء على كل محاولة قامت بها النزعة الإبداعية، التباس مصدره الأساسي عدم التمييز بين مفهومي "الجدلية" و"التناقضية" إذا صح التعبير.

ينشر المقال بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية والنص كاملا على الموقع الالكتروني

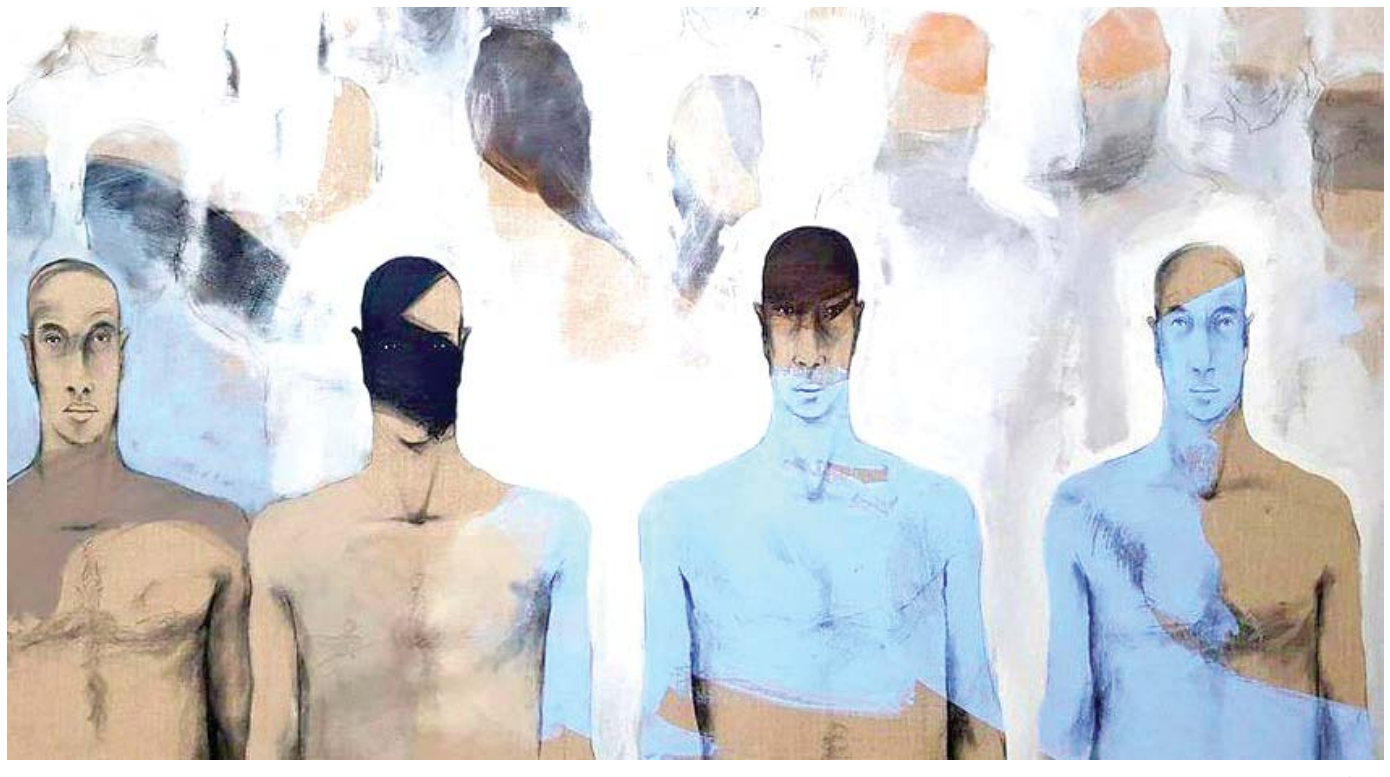

لوحة بهرام حاجو